التفسير الموضوعاتي للقرآن الكريم(*)

من أمين الخولي إلى حسن حنفي

د. يمنى طريف الخولي(**)

الملخص

هذا البحث رؤيةٌ للتفسيرِ الموضوعاتي للقرآن الكريم من حيثُ نشأتِه ودواعيه وتطوراته، وصولا إلى انبثاقته وحضوره ودوره في الفكر الإسلامي النهضوي إبان القرن العشرين وما تلاه. وهذا من خلال المقارنة بين رائدين فاعليّن في إرساء أسس مدرسةٍ للتفسير الموضوعاتي للقرآن. إنهما أمين الخولي ومدرسته للتفسير الأدبي للقرآن في سياق مقارباته التجديدية التطورية للتراث، ثم حسن حنفي ومنهاجه الظاهراتي لتحليل الخبرات الشعورية في سياق مشروعه الشامل: «التراث والتجديد».

منطلق المقارنة أن كليهما هيرمنيوطيقيٌّ، قامَ بدورِه في استحضار وتفعيل منهجية الهيرمنيوطيقا في الفلسفة الإسلامية المعاصرة. وفي المحصلة يتضحُ كيفَ قامَ كلٌّ منهما بالتوظيفِ الجيد للهيرومنيوطيقا في مشروعِه الفكري وترسيمِ معالمِه، فكانَ رائدًا مجددًا.

Abstract

This paper is an approach to the thematic exegesis of the Holy Qur'an in terms of its genesis and developments, up to its emergence and current role in the modern Islamic Reformist Thought during the twentieth century and thereafter.

The approach goes through a comparison between two pioneers of Islamic

(*) بحث ألقي في: في ندوة: دراسات نقدية حول كتاب الفيلسوف حسن حنفي التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، التي أقامتها الجمعية الفلسفية المصرية بمقرها في ٨ نوفمبر ٢٠٢٠.

(**) أستاذ فلسفة العلوم ومناهج البحث - كلية الآداب - جامعة القاهرة - مصر.

renovation, innovation, and thematic exegesis of the Qur'an: **Amin Elkholy** and his school «literary Interpretation of the Qur'an» in the context of his evolutionism and renewal approaches to heritage, then **Hassan Hanafi** and the phenomenology of his comprehensive project «Heritage and Innovation.»

The cornerstone of the comparison is that both are hermeneuticists, playing great role in evoking the methodology of hermeneutics in the contemporary Islamic philosophy. Consequently, it will be seen that both made good activation of hermeneutics in his intellectual project, so that they are two great pioneers in delineating the features of an Islamic hermeneutics.

١ـ رائدان تجديديان

أمين الخولي (١٨٩٥-١٩٦٦) وحسن حنفي (١٩٣٥-؟)، رئدان في منهاجية جديدة لمقاربة الثقل الأعظم والثابت البنيوي في ثقافتنا أي القرآن الكريم. علمان بارزان اقترن اسماهما بالتجديد، كلٌ في مرحلته الحضارية من القرن العشرين وما تلاه، وتحديدا بقضية تجديد التراث. على أن شيوع وذيوع مصطلح «التراث والتجديد» المفعم بالتجريد والتوجيه والتقويم، قد تأتّى بفعل حسن حنفي الذي سكّه وصاغه كمشروعٍ وكعنوانٍ وكإجابةٍ واستجابة للإشكالية الكبرى الموجهة للفكر العربي الحديث أي مشكلة الأصالة والمعاصرة، التي هي في الواقع موجهة للفكر الحديث في كل ثقافة لا غربية لم تشارك في صنع الحداثة وفي افتتاح العصر الحديث مع مطالع القرن السابع عشر.[١] ونظرا للحضور العالمي الذي حققه حسن حنفي بات مصطلح «التراث والتجديد» العملة المتداولة في مجال الخطاب العربي المعاصر.

ولكن هل حقا التراثُ قبلَ التجديدِ.. أو الأصالة قبل المعاصرة كما يومئ المصطلح؟

(١) طرحتُ دراسة مقارنة بين التجربة العربية والتجربة اليابانية بخصوص إشكالية الأصالة والمعاصرة، في الورقة البحثية:

Authenticity/ Modernization between Egypt and Japan from a Philosophical Perspective, in the international conference: Reevaluation of the Modernization of non-Western Societies: The Case of Japan and the Egyptian Arab Model, Cairo University & Kurume University, 7-8 March, 2020.

٢ـ اتجاهات عدة للتفسير

قبل الإجابة على هذا السؤال نتفق على أن التفسير الموضوعي - أو بالأحرى الموضوعاتي[١] - منعطفٌ وقطعٌ منهجي لمناهج التفسير المعهودة، سواء مناهج **الرواية** النقلية أو مناهج **الدراية** العقليـة. تعتمـد مناهج الرواية على الأحاديـث النبوية وعلى المروي عـن الصحابة والأولين، أي عـن المنقولِ عن السـلف. وقد كان لها الأسـبقية الزمانية وكانت أول مـا ظهر من طرائق للتفسـير. أما مناهج تفسـير الدراية العقلية فقد تشكلت بعد أن اسـتقامت اللسانيات وعلوم اللغة العربية لتوجه عملية التفسير توجيها لا غنى عنه البتة في أي حال، ثم تكاتفت معها علوم أخرى نقلية وعقلية، ولم يعد التفسـير يقتصر على سرد الروايات المنقولة حين وحول النزول وأسـبابه. هكذا ظهـرت **طرائق التفسـير** اللغوي: النحـوي الذي يعتمد على إعـراب الكلمة ودورهـا في بنـاء المعنى، والبيـاني الذي يعتمد على دلالـة التركيب اللغوي، ثم طرائق التفسـير المجازي والرمزي والتأويلي عموماً.

مـن ناحية أخرى، يمكن أيضا تصنيف **اتجاهاتٍ للتفسـير** على طريقة المسـتشرق الألماني جولدتسـيهر، [٢] إلى تفسـير الرواية والتفسير الاعتقادي والتفسـير الفقهي والتفسير الصوفي والتفسـير الشـيعي وتفسـير المدنية والتفسـير العلمي الذي يجتهد في اسـتخراج مختلف العلوم مـن جوف القرآن، وهو اتجاه قديم اسـتوفاه الإمام الغزالي، وتواتر كثـيراً بعده، ثم علا صيته في الآونة الأخيرة. ومثلما يبحث المعنيون بالخطاب العلمي عن التفسير العلمي، بحث المتكلمون

(١) يشيع استعمال مصطلح «التفسير **الموضوعي** للقرآن» على الرغم من شيوع وذيوع الصفة **موضوعي** للدلالة على مصطلح الموضوعية التي تبذ أي دور أو تأثير للذات العارفة؛ بحيث أن objective exegesis هو التفسير الموضوعـي وأيضا thematic exegesis هو التفسـير الموضوعي! و إذا لا حظنا أن هذا الأخير، أي التفسـير الموضوعـي/ الموضوعاتي مطـروح مع الخولي وحنفي وأشـياعهما ليؤكـد الدور المحوري للـذات العارفة أو للمفسر وموقعه المعرفي تبدى لنا خطورة الخلط في المصطلح، وضرورة اسـتعمال مصطلح «موضوعاتي» وليـس «موضوعي». إن آفة إهمال الأصول المصطلحيـة والتغاضي عن ضرورة الضبط المصطلحي والتمييز بين المصطلحات إنما هي آفة تعصف بحديثنا الفلسـفي، فنجد مثـلا mind, intellect, reason جميعها عقل مـع اختلاف الدلالة، existence, being, ontic جميعها وجود، knowledge, cognition, episteme جميعها معرفة..... يتعجب المرء من هذا الخلط المصطلحي واللغة العربية تفوق لغات العالمين في عدد مفرداتها.

(٢) انظر: إجنتس جولدتسـيهر، **مذاهب التفسـير الإسـلامي**، ترجمة د. عبد الحليم النجـار، مكتبة الخانجي بمصر ومكتبة المثنى ببغداد، ١٩٥٥.

عن مشكلات علم الكلام في تفسير كلامي، وبحث أهل الحكمة عن الأسئلة الفلسفية في تفسير فلسفي.... وهلم جرا. تتعدد اتجاهات التفسير لتذكرنا بالحديث المأثور: «خذ من القرآن ما شئت لما شئت»، وبإجازة الإمام الغزالي لأن يستنبط كلُ واحدٍ من القرآنِ بقدرِ فهمِه وحد عقله.

وموضوعُنا الآنَ اتجاهان رائدان للتفسير هما الاتجاه الأدبي البياني مع أمين الخولي والاتجاه الفلسفي الظاهراتي مع حسن حنفي، اللذان تحقق فيهما التفسير الموضوعاتي للقرآن؛ كمحاولة تأويلية لاستكشاف معانٍ غير التي يفصحُ عنها النصُ، مستهدفةً دورَه في الواقع الثقافي المتعين. إنه منعطفٌ وقطعٌ منهجي عن سائر طرقِ التفسير المطروحة من حيث أنها جميعا مناهج طولية تسير وفقاً لترتيب السور والآيات؛ فتفسر القرآن الكريم سورة سورة أو آية آية، وجملة جملة أو حتى كلمة كلمة - ونجد معجميات قرآنية كثيرة - بترتيب ورودها في المصحف. وحتى إذا كان المفسرُ يبحثُ عن موضوعٍ معين أو ناحيةٍ خاصة من القرآن الكريم، راح يتلمسها بهذا الأسلوب الطولي الذي يتتبع ورود الآيات الدالة وفقا لتتابعها على صفحات الكتاب الكريم. أما التفسير الموضوعاتي فتفسير عَرْضي هو تواتر لتفسير الموضوعات، موضوعا موضوعا في امتداده بعرض القرآن. التفسير الموضوعاتي العرضي قطع منهجي لأنه مقابل للتفسير الطولي الذي استبد بالميدان، وهو منهج مستجد بمعنى الكلمة.

٣ـ في ضرورة التفسير الموضوعاتي:

كل مقولة لها إرهاصاتُها عبرَ التاريخ. ولعل القرن الرابع الهجري حمل أولي بدايات دعوة إلى التفسير الموضوعي عندما أشار محمدَ بن إبراهيم الخطابي (ت. ٣٨٨هـ) في رسالته «البيان في إعجاز القرآن» إلى أن الله سبحانه يمتحن طاعة عباده المجتهدين بأن يقوموا بجمع المفترق من القرآن الكريم وتنزيله وترتيبه. ثم نجد محاولة مبدئية ومستفيضة للتفسير الموضوعاتي بدراسة ابن قيم الجوزية (ت.٧٥١هـ) لموضوع «القَسَم» في كتابه **التبيان في أقسام القرآن،** الذي استجمع فيه واردات موضوع القسم بعرض القرآن مفسرا إياها تفسيرا تفصيليا تحليليا، وكانت محاولة تطبيقية ماثلة، لكنها عابرة لها قصوراتها.[1] ثم تلوح مشارف التوجه المنهجي

(١) على الرغم من أن أمين الخولي يرى ابن قيم الجوزية أول رواد التفسير الموضوعاتي، فإنه يقول في نقد محاولته: «لكنه مع ذلك لا يستقصي تتبع النظائر و يتولاها بالتفسير المقابل الذي يستعان فيه على فهم بعض=

ذاتـه نحو التفسـير الموضوعاتي مع التيـار الإصلاحي في الفكر الحديـث، خصوصاً من حيث مال أتباع مدرسة محمد عبده - الأستاذ الإمام- إلى استحضار فقه الشاطبي والتفسير المقاصدي الاجتماعـي البرجمـاتي، توظيفـا وتفعيـلا للتفسـير في الإصلاح الديـني والتنهيـض الحضاري. وكلا العلمين - الخولي وحنفي- سـائر في مسـار محمد عبده محتفيا بمعتزليتـه ومن أقطاب التيار الإصلاحي الذي نراه التيار الرئيس في النهضة الحديثة للفكر الإسـلامي، يرفض زيف القضية ونقيضها: أي يرفض السلفية والتغريب كليهما، آخذا بالمركب الجدلي والوسط الذهبي: الأصالة والمعاصرة معا، أو التراث والتجديد، حيث يطابق كلاهما بين المعاصرة وبين التجديد.

على أية حال لم يظهر مصطلح «التفسير الموضوعي»، ولم يشهد طرحا متكاملا كنظرية وكتطبيـق إلا في النصـف الثاني من القـرن الرابع عشر الهجري، أي فقـط في القرن العشرين، ليمثـل منعطفا وقطعا منهجيـاً، ذروة من ذري المعاصرة والإنجاز التجديدي المسـتحدث الذي تأخر طويلاً.

إنهـا بديهية مثيرة للدهشـة لأنها لم تتبلـور إلا مؤخراً: ضرورة الطـرح الموضوعاتي الذي نحّاه القرآن الكريم جانباً، ربما ليستدعي - كما أشار الإمام الخطابي - دورا ترتيبياً موضوعاتياً للمفسر في اسـتقرائه للدلالة القرآنية، واسـتنباطه لخطاب قرآني متجدد. فقد اسـتوى الكتاب الكريـم في هيئـة مصحف عثـمان المندرجـة في مائة وأربع عشرة سـورة. تندرج كل سـورة في عدد أو عديد من الآيات، ما بين مائتين وسـت وثمانين آية كما في سـورة البقرة، وثلاث آيات كما في سور العصر والكوثر والنصر. ولا تصنيف أو ترتيب للآيات أو للسور. الآية قد تكون محـض حـروف نبحث عن سرهـا ودلالتهـا ﴿الٓمٓ﴾ ﴿كٓهيعٓصٓ﴾ أو كلمـة: ﴿ٱلۡحَآقَّةُ﴾ ﴿ٱلۡقَـارِعَةُ﴾ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾، أو كلمتين ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيۡتُونِ﴾ ﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾، أو تساؤلاً أو جملة أو جـزءاً من جملة، أو فقرة قد تطول وقد تقـصر. ولم تتراتب ولا حتى وفقا لتواريخ النزول. تتداخل معا السور المكيّة والمدنيّة. لكل سورة اسمها، ولم تكن أسماء السور عناوين جامعة أو مانعة باسـتثناء القليل من قصار السـور، فقد تشـمل السـورة موضوعات بخلاف عنوانها/ اسـمها قد يحتل أحدها مسـاحة أوسـع، وقد تتطرق سـور أخرى إلى موضوع العنوان وأحيانا

= القـرآن ببعضـه فهما يعطي الفكرة الموحدة عن المنهج القرآني في القسـم» (أمين الخولي، **التفسـير: معالم حياتـه/ منهجـه اليوم**، الهيئة المصرية العامة للكتـاب، القاهرة، ٢٠٠٣. ص٣٢. وهـذا الكتاب أو الكتيب في أصله الفصل الخاص بالتفسير في كتاب أمين الخولي العمدة **مناهج تجديد** 'الهامش رقم ١٧').

بشكل أوفى. نثرت الموضوعات نثرا بليغا وتفرقت «وهكذا تقرأ في السورة الواحدة فنونا من القول، وتمر بألوان من الأغراض المختلفة، تعرض لها سورة أخرى، فيتكامل العرضان، وتتم الفكرة بتتبعها في مواطن متعددة»؛[١] ليبدو التفسير الموضوعاتي ضرورة ملحة تأخرت كثيرا.

٤ـ إنها الهرمنيوطيقا

جاء الخولي وحنفي رائدين في التصدي لهذه الحاجة الملحة، وفي ريادة وارتياد التفسير الموضوعاتي. وقد كان ذلك انطلاقاً من الهِرُمَنيوطيقا وبفعلها وتفعيلها. الهرمنيوطيقا فلسفة الفهم والتأويل.. أداته وإطاره من حيث هي فلسفة للتفسير المتجدد دائما، قوة ولود مثمرة للجديد.. فتدفع إلى تفسير قرآني الجديد.

الهِرُمَنيوطيقا منهج تفسير وتأويل يلغي التباعدَ بين الموضوع/ النص والذات/ القارئ أو المتلقي.. فيقوم على فهم النص ليس ككيان مفارق، بل فهمه وتفسيره وتأويله في سياق إنتاجه وفي أفق المتلقي له، فتتعدد مدلولاته بتعدد آفاق المتلقين باختلاف الأزمنة والأمكنة. ويبقى النص معينًا لا ينضب أبدًا وإمكانية متجددة دومًا. هكذا تتجلى الهِرُمَنيوطيقا كمنهاج ذي قدرة متفردة على بث الحياة مجددًا ودائمًا في النص، هو تمثيل عيني للتجديد في الفهم والتأويل والتفسير كفعالية متوالية.[٢]

في الهِرُمَنيوطيقا يتكاثف الدور التجديدي لكليهما. يمكن اعتبارها التجديد الأكبر لأمين الخولي وهو الذي عمل على التجديد الشامل لكل الدوائر المتصلة باسهامه: النحو والبلاغة والأدب والتراجم والتفسير، تتلاقي جميعها في تجديد الفكر الديني.[٣] لم يستخدم الخولي

(١) أمين الخولي، **التفسير**، ص٣٦.

(٢) د. يمنى طريف الخولي، الهيرمنيوطيقا وإمكانيات المنهج الفينومينولوجي، في: مجلة الفلسفة والعصر، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، العدد الأول، ١٩٩٩. ص ص ١٨٤-١٨٩.
وفي العرض الشامل المتكامل لماهية الهيرمنيوطيقا وتطورها وأبعادها، انظر كتاب: د.عادل مصطفى، **فهم الفهم: مدخل إلى الهرمنيوطيقا.. نظرية التأويل من أفلاطون إلى جادامر**، دار رؤية، القاهرة، ط١، ٢٠٠٧. (طبعة إلكترونية على موقع مؤسسة هنداوي).

(٣) عرضت هذا تفصيلا في بحثي الأخير: «آفاق التجديد في فلسفة أمين الخولي، منصة معنى الإلكترونية: https://mana.net/، ١٧ أكتوبر ٢٠٢٠»، حيث تتواتر مجالات تجديده المتوالية، وينص عنوان جانبي على=

مصطلح الهرمنيوطيقا، ولكنه عرف عن شلايرماخر - أبي الهِرُمَنيوطيقا الحديثة - وعن أعماله إبان إقامته في ألمانيا إماما للمفوضية المصرية فيها.[١] ويظل أول ما يسجل له هو المغامرة الهِرُمَنيوطيقية. ببساطة كانت مدرسة الخولي في تفسير القرآن أول اقتحام للهِرُمَنيوطيقا في الثقافة العربية الحديثة، وهو أول هرمنيوطيقي في تاريخ الحضارة الإسلامية. يقول فيلسوف الدين العراقي البارز د.عبد الجبار الرفاعي: «إن الخولي هو أول هِرُمَنيوطيقي بالعربية، وربما في عالم الإسلام، إذ لا أعرف أحدا سبقة إلى ذلك، حتى في بلاد الإسلام غير العربية.»[٢]. وصدر للرفاعي مؤخرا كتاب بهذا العنوان «**الشيخ أمين الخولي: أول هِرُمَنيوطيقي في عالم الإسلام**، في منشورات نور الدولية، ٢٠٢٠». وشبيه بهذا ما تقره رصودات غربية للمسارات الحديثة للهِرُمَنيوطيقا والتحولات الهِرُمَنيوطيقية. ونقصد في هذا الصدد «موسوعة الهِرُمَانيوطيقا» بأجزائها الثلاثة الضخمة الضامة لعشرات البحوث المرجعية. وقد ترجمها محمد عناني إلى العربية، ونقرأ فيها أن أمين الخولي في طليعة من تولوا «تشكيل الهِرُمَنيوطيقا في الفلسفية العربية الإسلامية من خلال المناظرات اللغوية».[٣]

نقرأ فيها أيضا أن حسن حنفي من رواد الفلسفة الإسلامية الكبار في الهِرُمَنيوطيقا وفي التجديد على أساسها، ويُطرَحُ مشروعُ «التراث والتجديد» بوصفه «مشروعه الهِرُمَنيوطيقي الفلسفي الجاد»[٤] المقام على حجج مقنعة في توظيف الهِرُمَنيوطيقا كجسور

= أن الهرمنيوطيقا هي التجديد الأكبر للخولي. وفضلا عن كتابي «**أمين الخولي والأبعاد الفلسفية للتجديد**»، قدمت مقاربة لتجديدية أمين الخولي في محاضرتي:

An Approach to Renovation and Evolutionism in Contemporary Arab Philosophy: Amin Elkholy as Model.

التي ألقيتها في نوفمبر ٢٠١٩، في إطار برنامج: «Contemporary Woman Philosophers in Arab Countries: Intellectual Portraits»، الذي أعدته أكاديمية برلين في جامعة هيلدسهايم لعرض منظورات نساء فلاسفة .

(١) هذا ما يؤكده السيد أحمد خليل، في كتابه: **نشأة التفسير في الكتب المقدسة والقرآن**، الوكالة الشرقية للثقافة، الإسكندرية، ١٩٥٤، ص ١٤١. (نقلا عن مرجع عن مرجع عبد الجبار الرفاعي التالي).

(٢) د. عبد الجبار الرفاعي، ، **الدين والاغتراب الميتافيزيقي**، ٢٠١٩، (بيروت: دار التنوير للطباعة والنشر)، ص ١٨٢.

(٣) نخبة من المؤلفين، **موسوعة الهيرمانيوطيقا**، ترجمة د. محمد عناني، الجزء الثالث، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ٢٠١٨. ص٤٢٢.

(٤) المرجع نفسه، ص٤٢٦.

معرفيـة بين الذات والموضـوع، أو بين الوعي الذاتي والنص القرآني. ومن قبل أجملتْ درسـات مماثلة - من حيث صدورها في الغرب - مشروع «التراث والتجديد» بأنه «نظرية هِرمنيوطيقية تعيد بناء المنظومة الحضارية، وبصفة خاصة اليهودية/ المسـيحية/ الإسـلام، وفي سـويدائها يرابض الوحى التراثي، بعد تأهيله لهذا ورد الاعتبار إليه كأسـاس للحضارة الإنسانية، في عالمِ حديث تحرر من الاغتراب وظافر ببرنامج عمل شامل للفعل الإيجابي».[١]

هكـذا تبدو الهرمنيوطيقا شـاملة لمشروع «التراث والتجديـد»، أو هي الانعكاس التام لـه. منذ أولى الخطـوات تجلت الهِرمنيوطيقيا في فينومينولوجيا أو ظاهريات التفسـير: باكورة أعمال حسـن حنفي أي رسالته للدكتوراه من جامعه السـوربون. وقد طرَحَ ترجمة عربية لها في جزأيـن: الأول تأويـل هِرمنيوطيقي للظاهرة الدينية.[٢] والجزء الثاني تفسـير هِرمنيوطيقي للإنجيل تمثيلاً لبنية الوعي الأوروبي: النظري والتاريخي والعملي.. وعي الآخر الأوروبي، ليقدم حنفـي للقـرآن الكريم في المرحلة الثالثـة والأخيرة من مراحل مشروع «الـتراث والتجديد» تفسـيرا موضوعاتيا هو تمثيل لبنية وعينا الإسلامي.. وعي الآنا.[٣] إن «جدل الأنا والآخر»[٤] محور من محاور المشروع.

فيـما بين هاتين المرحلتين، أو بين الخطوة الأولى والخطـوة الأخيرة، تواترات أعمال حنفي وتوالت؛ لوضع اللبنة تلو اللبنة والمدماك إثر المدماك في البناء الشاهق الشامل لمشروع «التراث والتجديد» حتى بلغ اكتماله وتمامه بصدور الكتاب المهيب الجبار «التفسير الموضوعي للقرآن الكريم».. موضوعنا الآن، والأسبقية الزمنية تجعلنا نتوقف عند الخولي أولاً.

---

(1) Issa J. Boullata, **Trends and Issues in Contemporary Arab Thoughts**, University of New York, 1990. P.40

(٢) حسـن حنفي، **تأويل الظاهريات: الحالة الراهنة للمنهج الظاهرياتي وتطبيقه في الظاهرة الدينية**، مكتبة النافذة، القاهرة. ٢٠٠٥.

(٣) حنفي، **ظاهريات التأويل: محاولة في تفسير وجودي للعهد الجديد**، مكتبة النافذة، القاهرة، ٢٠٠٦.

(٤) منذ خمسة وعشرين عاما طرحتُ دراستي لهذه القضية في مشروع 'التراث والتجديد' في:
جدل الأنا والآخر في الفكر العربي المعاصر، مجلة القاهرة، العدد ١٥١، يونيو ١٩٩٥. ص ص ٢١٣-٢٢٤.
ثـم أعيد نشرها في كتاب يحمل مشـاركات مجموعـة من الباحثين حول جوانب عـدة من مشروع «التراث والتجديـد». حمـل الكتاب بأسره عنوان دراسـتي نفسـه، إنه كتاب: **جـدل الأنا والآخر: قـراءات نقدية في فكر حسن حنفي في عيد ميلاده الستين**، مكتبة مدبولي الصغير، القاهرة، ١٩٩٧. ص ص ١٨١-١٩٦.

٥ـ تفسير الخولي للقرآن

اتفقنا على هيرمنيوطيقية التفسير الموضوعاتي، لنلاحظ أنها متجذرة في فكر الخولي، فهو يؤكد أن التفسير - أي تفسير - لا يكون إلا هرمنيوطيقيّاً، من حيث أن القارئ هو الذي يصنع روح التفسير ولونه الذي يتأثر بالعلوم والمعارف التي يلقى بها المفسرُ النصَ ويستعين بها في استجلاء معانيه، و«حتى في رواج التفسير النقلي وتداوله، تكون شخصية المتعرض للتفسير هي الملونة له، المروجة لصنف منه»[١]، وبطبيعة الحال يتضاعف هذا حين تلقي النص الأدبي.

مدرسة الخولي هي مدرسة التفسير الأدبي للقرآن، تصادر على أن القرآن الكريم هو « كتاب العربية الأكبر وأثرها الأدبي الأعظم» أي على مقاربة القرآن كنص أدبي فائق، بصرف النظر عن أي اعتبارات أخرى دون الاعتبارات الأدبية. هنا تفسير القرآن الموضوعي/ الموضوعاتي: النظر إلى الكتاب المجيد بأسره كموضوع واحد هو النص الأدبي أو أدبية النص التي تستهدف التأثير الوجداني وليس الخبر عن الواقع، كفنٍ أدبيٍ مُعجز بهدِيه للنفوس وتأثيره البالغ بجرسه وإيقاعه، بمبناه ومعناه.... وقعه وتأثيره على النفس الإنسانية بمتغيرات احتياجاتها واستجاباتها بتغير الزمان والمكان. يشدد الخولي على العنصر النفسي/ السيكولوجي، فلئن احتلت البلاغة وجمالياتها موقعها في مقاربة النص الأدبي، فإن الخولي في تجديده للبلاغة أكد على تحريرها من الفلسفة وترك المجال لعلم النفس من أجل انطلاقها لتخاطب النفس الإنسانية والحس الجمالي فتربي الذوق والوجدان، البلاغة هي «فن القول»[٢] وجماله وعلم التفريق بين الجيد والرديء منه، ودراسة البلاغة لإعجاز القرآن هي دراسة للون معياري من القول الجيد. وقد كان الخولي في طليعة روادنا الذين تعرضوا لصلة علم النفس بالبلاغة وبالأدب.[٣] وبالنظر إلى وثيق

(١) الخولي، التفسير، مرجع سابق، ص ٢٩.

(٢) أمين الخولي، **فن القول**، تعبير اشتهر به أمين الخولي، وهو عنوان كتاب له في البلاغة وتجديدها، بتصدير تلميذه د. محمد العلائي، وتلك سمة انفرد بها الخولي، وهي أن يجعل تلاميذه يكتبون مقدمات لكتبه. صدرت لهذا الكتاب أكثر من طبعة، منها طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٦.

(٣) انظر: علم النفس والأدب، في: أمين الخولي، **مناهج تجديد: في النحو والبلاغة والتفسير والأدب**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٥. ص ص ١٣٥-١٦٣. وأيضا: أمانة جامعية في المرجع نفسه، ص ١٥٩-١٦٠. وللخولي أيضا: علم النفس الأدبي، في مجلة علم النفس، العدد الأول، ١٩٤٥. ص ص ٢٦-٥١.

اتصال القرآن بالحياةِ الإنسانيةِ وبمتطلبات وموجهات الواقع، يتآزر هذا البعد السيكولوجي مع بعد اجتماعي، يفيد في ملحمة التفسير كلاهما وسواهما مما أسماه الخولي «دراسة ما حول النص»[١]. هكذا ينعت الخولي نظريته في التفسير الأدبي بأنها «لون من التفسير النفسي والاجتماعي مستمد من الحس اللغوي والجو الأدبي للقرآن».[٢]

أما عن التطبيق فيمكن تلمسه في تفسيرات موضوعاتية على المستوي الثقافي العام، وعلى المستوى الأكاديمي الخاص. المستوى الأول تمثل في أكثر من خمسين حلقة إذاعية منذ مطالع أربعينيات القرن العشرين كرسها الخولي ليعرض على السامعين مقاربات لتفسير القرآن أو فهمه وتأويله، بعنوان «من هدي القرآن»، [٣] استن فيها **عرض موضوعات قرآنية** وليس آيات متتابعة طولياً، نذكر منها مثلا موضوع «القادة الرسل» أو بحث وضعية ودور الأنبياء، و«في أموالهم» يبحث موضوع الاشتراكية والرأسمالية رافضاً ربط الإسلام بأيهما، مؤكدا أن ما يحمله القرآن مثالية لا مذهبية.

أما على المستوى الأكاديمي النخبوي، فتبرز القضية التي أثارت المعارك الكبرى في نضال الخولي، وهي موضوع الفن القصصي في القرآن، تأكيدا على أنه تمثيل أدبي للتذكرة والاعتبار وليست البتة تسجيلا تاريخيا، حتى أن ورود الخبر في القرآن لا يقتضي وقوعه. وهو ما تكفل بإنجازه تلميذه محمد أحمد خلف الله، برسالته للدكتوراه تحت إشراف الخولي التي رفضت الجامعة اعتمادها أو منحها وسحبت من المشرف تدريس علوم القرآن. وكانت معركة أمين الخولي الكبرى مع الجامعة دفاعا عن حرية التفكير، وهي مذكورة ومشهورة.[٤]

---

(١) مدحت ماهر وشريف عبد الرحمن، **أمين الخولي: من أدبية التفسير إلى إشكالات التأويل**، القاهرة وبيروت: دار الكتاب المصري ودار الكتاب اللبناني، ٢٠٢٠. ص٨. يتميز هذا الكتاب بقدر من الرصانة والموضوعية والإحاطة وعمق المعالجة، مثير حقا للإعجاب.

(٢) الخولي، التفسير، م. س.، ص٤٧.

(٣) كانت تظهر بعد إذاعتها في مجلة الإذاعة. وأعيد ظهور بعضها في ثلاثة كتب لأمين الخولي عنوانها «من هدي القرآن» والعناوين الفرعية: «القادة الرسل» و«في أموالهم» و«في رمضان». أصدرتها الهيئة المصرية العامة للكتاب في إطار الأعمال الكاملة لأمين الخولي.

(٤) انظر هذا الكتاب ومقدمة أمين الخولي الرنانة له: محمد أحمد خلف الله، **الفن القصصي في القرآن الكريم**، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ، ط٢، ١٩٧٢. وقارن تصديراً في: محمد أحمد خلف الله، **الفن القصصي في القرآن الكريم**، شرح وتعليق: خليل عبدالكريم، بيروت: الانتشار العربي، ط٤، ١٩٩٩.

تظل هذه المحاولات التطبيقية جميعها إسهامات الجزئية، فلم يقدم الخولي تفسيرا كاملا للنص القرآني بأسرة. مثل هذا الطرح الكامل المتكامل هو ما قدمه حسن حنفي بثقة واقتدار في كتابه «**التفسير الموضوعي للقرآن الكريم**» الذي تربو صفحاته على الألف صفحة.

٧ـ تفسير حنفي للقرآن

يقول حنفي إن«التفسير تصور اجتماعي للدين في مرحلة تاريخية معينة»، [١] وأن المقومات الثلاثة لنظرية المعرفة في مشروعه هي الوحى - العقل - الواقع، ذلك أن «نظرية المعرفة لدينا هي التأويل والتفسير، تأويل القديم من أجل إعادة بنائه طبقا لحاجات العصر، نظرية المعرفة لدينا هي الهيرومنيوطيقا أو نظرية التفسير».[٢]

معنى هذا أن نظرية حنفي في التفسير، هي الهرمنيوطيقا، هي نظرية المعرفة، هي الوعي، هي الموقف من الواقع، هي الجبهة الثالثة من مشروع التراث والتجديد ثلاثي الأضلاع[٣].

فكيف يكون التفسير الموضوعي للقرآن الكريم كل هذا معاً؟

في الإجابة على هذا السؤال نلتجئ إلى دورِ الهيجليةِ في فكرِ حنفي أو في مشروعِ «التراث والتجديد» الذي تميز بتعدديةٍ منهجية تستفيدُ من مقاربات شتى وطرق عدة تأتم بفينومينولوجيا هوسرل.[٤] ليس المقصود بالهيجلية الآن المنهج الجدلي الذي يقوم بدور في مواقع شتى من مشروع حنفي حيث يسفر انقلاب القضية إلى نقيضها عن مركب شامل يجمع خير ما فيهما و يتجاورزهما إلى الأكمل والأشمل، بل المقصود تحديدا **المصادرة الهيجلية الكبرى**: كل معقول واقعي وكل واقعي معقول، التي هي مثالية رافضة للتجريبية.

(١) د. حسن حنفى، **من العقيدة إلى الثورة**، مكتبة مدبولى، القاهرة، ١٩٨٨. المجلد الأول: المقدمات النظرية، ص٣٦٥.

(٢) حسن حنفى، **مقدمة في علم الاستغراب**، الدار الفنية، ١٩٩١، ص٦١٧.

(٣) الضلع الأول الموقف من التراث، الضلع الثاني الموقف من الغرب أو علم الاستغراب، الضلع الثالث الموقف من الواقع أو التفسير الموضوعي للقرآن.

(٤) يعنى طريف الخولي، التعددية المنهجية في مشروع التراث والتجديد، في: سلطة النص: أعمال الندوة الفلسفية الدولية السابعة والعشرين التي نظمتها الجمعية الفلسفية المصرية بجامعة القاهرة والمعهد السويدي بالإسكندرية في ديسمبر ٢٠١٦، مركز الكتاب للنشر، ٢٠١٧. ص ص١٥٧-١٦٦.

رغم استهداف حنفي للواقع وللانتقال للواقع وللانشغال بالواقع دائما وأبدا، يظل حنفي مثاليا في منزعه ليس تجريبيا وضعيا بحال. وبالتالي الواقع هو المعقول.. هو الوعي. ومثلما كانت ظاهريات تأويل العهد الجديد نظرية في بنية وعي الآخر الأوروبي، فإن فهم القرآن الكريم هو نظرية في بنية الوعي الإسلامي، وتفسير القرآن هو تبيان تطابقه مع هذا الوعي، الذي هو الواقع الإسلامي، أو واقع الثقافة الإسلامية، فكل معقول واقعي؛ ليغدو تفسير القرآن هو الموقف من الواقع.

بعبارة أخرى تفسير حنفي الموضوعاتي للقرآن هو رسم تخطيط شامل للوعي: نشأة الوعي بالجسم، ثم الوعي الذاتي أو الوعي بالذات حيث المعرفة العقلية والوعي بالزمان والعواطف والانفعالات، ثم الخيال والوعي الخلقي والوعي بالقيم، ثم الوعي المقاصدي والأفعال، ثم الوعي بجدلية الأنا والآخر، ثم الوعي بالطبيعة بشتى مكوناتها وعناصرها واتجاهاتها وصولا إلى الوعي بالعمران في الطبيعة، وأخيرا الوعي بالتاريخ وبتاريخ الوعي حيث «يكتمل الوعي بالنظر إلى ماضيه وتحقيقه لحاضره واتساعه لمستقبله»[1] فنصل في النهاية أو في ذروة اكتمال الوعي إلى ما أسماه الصوفية «الإنسان الكامل»، ويتماهي الفارق بين الذات والصفات الإنسانية والذات الصفات الإلهية، أو بين الوحي والواقع.

وتحت هذه التخطيطات الكبرى لبنية الوعي الإسلامي تندرج مئات المقولات، أكثر من سبعمائة مقولة تكاد تستوعب سائر ألفاظ القرآن الكريم لتشكل شبكة هائلة جامعة شاملة لجزئيات الوعي/ الواقع، كل مقولة/ لفظة تحيل إلى آية أو آيات، لتتمثل في النهاية مجموع آيات الكتاب الكريم تفسيرا لمجموع مقولات الوعي/ الواقع.. إنه استجواب واستنطاق للقرآن الكريم لتتلو علينا محكم آياته نص الواقع المتمثل في نص الوعي وسيرورته إن جاز التعبير.

هكذا يتقدم الواقع على النص، والمعاصرة على الأصالة، والتجديد على التراث. لقد كان مدخلنا هو السؤال: هل التراث حقا قبل التجديد؟ والإجابة كلا.. لم يكن التراث هكذا مع حنفي المنطلق من قاعدة فلسفية ليبدع نسقاً فلسفيا مهيباً يبدأ من التجديد المنصب على التراث. إن الواقع/ التجديد/ المعاصرة أولا وقبلا، وهدف نقارب التراث للوصول إليه.

(١) حسن حنفي، **التفسير الموضوعي للقرآن الكريم**، توزيع رؤية ونيوبوك، القاهرة، ٢٠١٨، ص٩٣٣.

أما مع أمين الخولي فقد كان التراث قبل التجديد حقا وفعلاً. وشعاره الشهير «أول التجديد قتل القديم بحثا وفهما ودراسة» هو الذي جعله شيخ الأصوليين في التجديد وشيخ المجددين في الأصولية. إنه ينطلق من قاعدة الأصوليات الدينية باحثا عن مدلول/ خطاب/ تفسير جديد للقرآن الكريم يطابق روح العصر و يلبي احتياجاته.

رائع أن ينطلق العَلَمان من قاعدتين مختلفتين ليلتقيا في غاية وهدف التفسير الموضوعاتي للقرآن الذي اتفقنا على أنه كان ضرورة ملحة. وذلكم هو حلم حنفي الأثير: أن تتلاقى الفرق المختلفة لتتآزر جهودها المخلصة من أجل التجديد والتنهيض والتقدم.

وها هو تلاقٍ تحت راية التفسير الموضوعاتي للقرآن الكريم.